معرض جمعية الفنانين العراقيين

ربيع الفن في بغداد

●

كنت قد ذكرت في مقال سابق لي نشرته « الاداب » الغراء في عددها الاسبق بعنوان « ربيع الفن في بغداد » ، والذي تناول بالنقد المقارن اربعة معارض فردية وجماعية اقيمت في بغداد خلال ربيع هذا العام ، ان هناك معرضا خامسا تجري تحضيراته باسم « جمعية الفنانين العراقيين» . وما دام هذا المعرض على درجة كبيرة من الاهمية لكونه تطورا واعيا لجهود فنانينا ، هنا ، موحدة ، لاول مرة في تاريخ الفن العراقي الحديث ، في معرض جماعي كبير ، وما دامت جمعية الفنانين ذاتها قد قدمته على انه خلاصة جهود اعضائها ـ ذكر الكتيب الذي اصدرته الجمعية بالنص ما يلي : « والجمعية الان ، استمرارا بسعيها في تقديم احسن ما يبدعه الفنانون في هذا البلد ، تعرض صفوة جهود اعضائها ، في هذا المعرض السنوي لعام ١٩٥٧ » ـ ، لكل هذه الاسباب آثرنا ان نقدم نقدنا هذا متوخين فيه المنهجية العلمية الموضوعية قبل كل شيء ، ومتممين ما بدأناه في نقدنا المقارن المنشور في العدد الاسبق من « الآداب » وبذلك يتيسر لنا ان نقدم للقاريء العربي الاخ رأينا في تطور الفن العراقي المعاصر وفتوحاته وانجازاته من جهة ونقائصه وسوآته من جهة اخرى . وكذلك كيما يمكن بنقدنا الذي قدمناه ، متكاملا بهذه الصورة ، ان نعطي اهم ما يستطاع معرفته عن حصاد بغداد الفني لهذا الموسم ـ كما رأيناه عبر معرض الجمعية السنوي الاول وما سبقه من معارض.

على ان هناك اسبابا اخرى حملتنا على التدقيق في هذا المعرض السنوي الذي يتمتع باهمية استثنائية ، منها ان المعرض ضم لاول مرة اسرة فنية جديدة هي « جماعة الفن المعاصر » ـ ومن ابرز وجوهها نوري الراوي وحيدر ـ ، كما ان المعرض احتضن اسرة طيبة العطاء الانساني ، موضوعا ومضمونا فنيا ، وهي التي كانت قد احتجبت طيلة موسم هذا العام ،ونعني بها « جماعة الرواد » التي يمثلها الفنان الواقعي التعبيري المجيد محمود صبري ـ سكرتير جمعية الفنانين العراقيين ـ واسماعيل الشيخلي ، وكذلك رأينا « جماعة الانطباعيين » بعد فراق طويل ـ وابرز فناني هذه الجماعة كما قدمها كراسها لمعرضها الخاص في العام المنصرم ، هو الاستاذ حافظ الدروبي . كما ان « جماعة بغداد للفن الحديث » قد اسهمت في هذا المعرض ايضا مكملة الرباعي الفني العملاق لجمعية الفنانين العراقيين . وقد دخل المعرض فنانون مستقلون عراقيون واجانب نذكر منهم مثلا اكرم شكري ومحمد صالح زكي ـ وهما عراقيان ـ ، وفريدون ـ وهو ايراني ـ ، هذا عدا عن الهواة من طالبات وطلبة الكليات مثل عذراء العزاوي ، ووداد لاورفلي ، وناثرة الكتاب . وقد بلغ ما احتواه هذا المعرض ٢٠٩ اعمال فنية ـ من المرسومات والمنحوتات ـ لاكثر من ستين فنانا .

وقبل كل شيء ، كانت ملاحظتنا الاساسية الاولى ان حصيلة هذا المعرض الكبير لم تكن ، لسوء الحظ ، ممثلة كل التمثيل جهود وعطاءات واتجاهات جماعاتنا الفنية ، مع استثناء « جماعة الرواد » . ولقد ظهر ان اسبابا لا موضوعية قد نغصت طيبة النوعية الفنية التي كنا نترقب لنتقد ، وبذلك جاء المعرض ، في معظمه ، « حشرا جاحظيا » لما اقتضته المجاملات والصداقات . وكانت حصة الابداع ، مع الاسف ، ضئيلة ، بينما تضخمت حصة التقليد والاغراب والركود والاجترار الفني . اما ملاحظتنا الاساسية الاخرى فهي ان سهم الموضوع كان قد اصيب بنكسة مؤلمة ، في معرضنا هذا ، وقد نتج هذا كما اعتقد ، من انتفاخ الشكل ، والمضمون ـ الى حد ـ ، على حساب هزال الموضوع . والحق انه لولا « جماعة الرواد » وفنانون اخرون من جماعات مختلفة ، لكانت النتيجة في غير صالح فننا المجاهد ، والذي يشق طريقه الطويل في وجه ظلاميات وعبوديات وسدود لا زالت تعيش شرورها .

وعلى اية حال ، فستكون لوحة ومقومات دراستنا النقدية هذه محتضنة اربعة ابعاد هي البعد الزمني ، والبعد المكاني او البيئي ، والبعد التكنيكي ثم البعد الموضوعي . وللايضاح ، اقول سندرس فنانينا ، عبر لوحاتهم في هذا المعرض ، من حيث مقارنتها مع اعمالهم الفنية السابقة لهذا العام او لاعوام خلت ، ومن حيث علاقتها بالبيئة العراقية والعربية ، كما سنؤكد على قيمتها الفنية تأكيدنا على قيمتها الموضوعية ـ رسالة ومضمونا ـ باعتبار ان الفن فعالية متحيزة ..

يقول المفكر الفنان دييجو رفييرا : « ان الموضوع للفنان كالقضبان لماكنة القطار فهو لا يستطيع الاستغناء عنه . وهو برفضه البحث او قبول الموضوع فان اساليبه التركيبية الشكلية ونظرياته ومفاهيمه الفنية تصبح موضوعا له » . كما ان مفكرا كبيرا آخر قال : « ان الفن يعود للناس ، وان جذوره يجب ان تخترق الاعماق العزيزة للنـــاس . يجب ان يتذوقه الناس ويحبوه . يجب ان يوحد عواطف وافكار وارادة هؤلاء الناس ويحفزها) . « الثقافة الجديدة »

وطبيعي ان فننا العراقي الحديث او فننا العربي بمجموعه لا يمكنه الاستغناء عن مثل هذه البديهيات الفكرية والفنية . واذا القينا نظرة فاحصة مدققة على مجموع اعمال فنانينا العراقيين ، منذ الحرب العالمية الثانية حتى الآن ، فاننا نجد مع كثير من التفاؤل ان البذرة السخية لتطور فننا ، موضوعا ومضمونا ، شكلا وصورة ، قد وجدت تربتها المعطاء وزارعيها المجاهدين المثابرين . ونحن ، هنا ، لا ننكر ان هناك جذبا الى الوراء يتجلى في اهمال الموضوع بصفة اساسية او اهمال الشكل ، ولكن كل هذا لا يمكن ان يعني ان كامل كيان فننا الوليد قد سقم . نعم ، هناك ارهاصات النهضة الحقة ، ولكن هناك ، ايضا ، جذر الرجعة اللئيمة .

ومع ذلك فان انساننا العربي المعاصر قد استطاع ان يهضم الحقيقة ان الفن والفنان ذاته ، وان الفكر والمفكر نفسه ، ملك للانسانية المناضلة نحو الافضل والاحسن . ان سمفونية تحقيق انسانية انساننا العربي المثلى تنتظر كثيرا من العطاء والدفع والتضحيات العملاقة الهادفة والواعية وجودها وذاتها ومستقبلها ، لتصدح وتتنفس ذاتها . ولا شك ان الموضوع، مضافا الى التقنية الفنية ، والاتجاه الانساني البناء ، هو جماع ما يقوم نقدنا الهادف لمصلحة الحقيقة والتاريخ ، ولمصلحة انساننا العربي قبل وفي نهاية كل جدل ونقاش وفحص وتمحيص ...

...

احتجنا ان نذكر كل الحقائق السالفة ، لندرع نقدنا بالحقيقة والصدق ـ مصبوبين عبر ملاحظاتنا الموضوعية التي نعترف انها قد تبدو قاسية ولكن قسوة الحقيقة ذاتها ، عبر كر الازمنة واختلاف الامكنة وجهاد انساننا الفنان العالمي ـ . والآن لنبدأ فحصنا النقدي على ضوء المعايير التي التزمناها ، عبر نقدنا للمعارض السابقة ، والتي حاولنا هنا ، ايضا ، التزامها وتطويرها .

يعرض ابراهيم عبو النعمان وادهم ابراهيم خالد لوحات لا يصمد امام النقد منها سوى اربع ، هن لوحتا ابراهيم : « المقهى » ، و «الدعاء» ولوحتا ادهم : « جاء للرزق » ، و « نساء القرية » . وهذان الفنانان ـ ولم يسبق لي ان تأملت لهما اعمالا ـ هاويان يحتاجان كثيرا من التتبع والعناء ، كما ان الشكل لديهما فقير ، والمضمون لا يتجاوب التجاوب الامثل مع موضوعه ، اما الالوان فتتطلب كثيرا من دقة الاختيار ، والامر نفسه يمكن قوله تجاه العجائن ذاتها .

اما اسماعيل الشيخلي ـ وهو فنان تعبيري موهوب من جماعة «الرواد» ـ فانه قد عرض ، هنا ، شيئا يستحق التسجيل والنقد . ان كامل لوحاته الست : « مقهى في الهواء الطلق » ، «رقي» ، « صديقان في مقهى » ، « منظر من الجادرية » ، « على شاطيء البحر » ، « الخريف » تنطق بموهبة متطورة وببساطة وعفوية اصيلة . ومع ان بعض لوحاته هذه كانت تحويرا او اجترارا لمرسوماته في العام الفائت ـ في معرض جماعته الخاص ـ ، فان لوحاته ، الاجتماعية والطبيعية ، تظل تفوح بالابداع رغم النقائص الفنية في الشكل والمضمون والتي تجلت بصفة خاصة في « صديقان في مقهى » .

ويعرض اسماعيل فتاح الترك لوحتين كانتا موفقتين في الموضوع والمضمون فحسب ، اما الصورة والشكل فقد كانا ، للاسف ، فقيرين الوانا وتفريشا وتوزيعا وتسوية . ان « سوق في الناصرية » و « الغسالات » عطاء لا بأس به من فنان لا زال عليه الكثير والكثير ليعيش اسلوبه وذاته .

اما اكرم شكري ـ وهو فنان يغرق كثيرا في التجريد مع بعض المسحة السريالية ـ فلم نلحظ له تطورا يذكر عن معروضاته في العام المنصرم . ومع انه يجيد الرسم بالبيروكسيلين والحبر الصيني ، الا انه قد جاء هو هو في معرضه الخاص لسنة ١٩٥٦ وفي مرسوماته في معرض المعهد الثقافي البريطاني وهنا . ان الموضوع لديه اجتماعي في معظمه الا ان المضمون يضيع ، للاسف ، جلال الموضوع وقيمته ، رغم قدرته الفائقة على الافادة من احدث انجازات التكنيك الغربي ، والاوروبي والمكسيكي منه بصفة خاصة ، ورغم ان الوانه دفيئة وطيبة وقد احتلت مكانها اللائق بها . ومع كل هذا فاننا نحمد له لوحته « قهوة » ـ حبر صيني ـ ، اما لوحاته البيروكسيلينية، هنا ، فغير موفقة امام لوحاته قبل عام فحسب.

ولوحتا بوغوس « عارية » و « انعكاس » لم تأتيا بجديد ، رغم ان هذا

احدى الروائع الفنية الفارسية التي استلهمها الفنان جواد سليم في صوره الجدارية لصالة سينما الخيام .

*

الفنان ـ وهو من جماعة بغداد ـ متمكن تكنيكا . ولعل سبب فشل رموزه ، هنا ، تأتي عن نقص ثقافته ووعيه ـ وهذا داء تعرض له عدد كبير من فنانينا ـ وهو اذا قيس بلوحاته في «معرض جماعة بغداد» الذي نقدناه ، فاشل في ميدان التطور الهادف موضوعا ومضمونا . والامر نفسه تجاه فناننا الاديب جبرا الذي نستثني له لوحته « ام وطفلها » والتي كان قد عرضها في ـ معرض جماعة بغداد ـ التي ينتمي اليها . وهنا نلاحظ كما ستؤيد الوقائع بعدئذ ، ان « جماعة بغداد » لم تخلص في عطائها في هذا المعرض الجماعي الموحد .

ولوحة جنان الخضيري « الاناء الارجواني » مع لوحة بديعة امينة سرحان « التعب » تشكلان عطاء مبكرا جدا ، وهو لذلك لم يات بالمرجو لهما من سبق . ومع ذلك فالشكل لديهما طيب نسبيا .

اما ثابت الجادر الذي عرض خمس لوحات ـ وكلها مناظر طبيعية ـ فقد جاء هو الاخر مرتجل الفعالية متسرعها . اما مضامينه واشكاله فهي لا زالت تنتظر التدقيق واما الموضوع لديه فطفل جانح !... واسارع فاوضح ان الاغراق في اللوحات « الطبيعية » ، هكذا ، هو خيانة للفن والفكر والانسانية ولا شك !

فاذا جئنا الى الفنان جواد سليم ـ وقد سبق ان درسناه في معرض « جماعة بغداد » نحاتا موهوبا ورساما اسطوريا غنائيا ـ وجدناه ، هنا ، لا يعرض سوى صور شخصية مع صورة واحدة من « بغدادياته » . ولذلك لا نستطيع ان نقول عنه شيئا رغم تأكدنا من براعته في الازميل والفرشاة ، ولكن هذا لا يمنعنا ان نقول انه قصر ـ مع جماعته ـ عن تطعيم

المعرض بخير ما لديه !..

على ان حافظ الدروبي ـ وهو فنان موهوب من جماعة الانطباعيين ـ ، يبهرنا ، ولكن من دون التأثير والانطباع اللازمين ، بقدرته في مضغ واقعنا « بالبوستر » كما تجلى ذلك في « الغسالة » و « تركيلة » و « حيره » ومعان اكثر لوحاته جديدة و « طازجة » تفوح بغنائية محببة ، الا انه لم يتفوق على نفسه كما قدمها في معرض جماعته لعامي ٥٥ و ١٩٥٦ . وتعيش الوانه في الفة متطورة مع فرشاته الواثقة الضربات ، ولكن الموضوع ـ وهو الجوهر ـ يظل يشكو فقر الدم لديه ..

اما حميد العطار فيبدع حقا في ارضائه جذور الفن الانسان ـ ونعني بها جودة الموضوع والمضمون والشكل ـ . فلوحاته الاربع ـ اثنتان منهما عن كربلاء ـ المدينة المقدسة في الفرات الاوسط ـ والثالثة عن « سوق الشواكه » ، والاخيرة « في الحقل » ، تتميز بغنائية وعفوية اصيلة لا ينقصها شيء سوى التدقيق في ـالفورمـ والتفتح الاعمق للحقيقة الباطنة والايماض السيكلوجي .

وتأتي الفنانة حياة جميل حافظ بلوحة فريدة عن « ورد الاشرفي » . ومع ان الشكل لديها طيب ، الا انها مترددة العطاء ، ، وقد كان بامكانها ان تقدم شيئا جديا يستحق الدراسة ...

وللفنان خالد الجادر ست لوحات في هذا المعرض هن ، بعد عميق التمحيص ، لسن الا تطويرا بسيطا ـ لا يكاد يلحظ ـ لمعروضاته في معرضه المنفرد لهذا العام . وقد اصر ، هنا ، على تقديم لوحات تعالج الطبيعة كما في « جبال الالب » مثلا ولا حصرا . ولا حاجة ان نقول انه فنان متمرس مجيد في الآثاريات والاجتماعيات ـ بنسبة اقل، بالرغم من ان مضامينه لم تتطور تطور مواضيعه .

اما خالد القصاب ـ وهو من اركان « جماعة الرواد » ـ فلوحاته الاربع تنطق بتكنيك سخي بالمضمون المتطور ، الا انه لا يتطور في الموضوع كما عرض نفسه في معرض جماعته للعام الماضي . ولوحته « الحيدرخانه » ـ وهي خير لوحاته ـ شيء يستحق الدراسة ، رغم الاستهتار في البالية وعدم الاهتمام بالتسوية والتفريش اللوني . ولوحته الاخرى « نخيل » لا تختلف في المضمون عن لوحته بنفس الاسم للعام الماضي . ونحن لا ندري سر هذا الاجترار الذي ابتلى به فنانونا فجاؤوا كنسخ الكاربون لاعمالهم السابقة ! هل عقم العالم ، والواقع ، والانسان الذي يعيشون معه ولاجله عن ان يجهزهم بالجديد ؟ الجواب معروف ولا شك ! ان العالم كله يتطور ولكن الكسل في فنانينا لا زال ، مع كل الاسف ، يعيش رغم انفلاق الهيدرجين !

اما خليل العزاوي ـ وهو وجه جديد ـ فلوحتاه « زقاق في بغداد » و « ربيع » تحبوان في تربص وخوف نحو تقدم متوقع لو اندفع هذا الفنان الناشيء في تجاسره وعفويته ولو طعم اشكاله والوانه بما يلزم ويناسب . والشيء نفسه يقال عن صفوة العاني في لوحته « نادي الكلية » ، وعن قريش داود في « النائمان » ، وعن كوستاكناريس في لوحتها « غجرية » ، وعن محمد رفيق في لوحته « طريق موحل » ، وعن محمد ياس في لوحته « مزهرية » . ثمة شيء يجمع كل هؤلاء الفنانين وهو افتقارهم الى التجاسر وعجزهم عن التشويه الفني ، وتأثرهم بالفوتوغرافية وتقليدهم لاعمال الفنانين المتمرسين امثال جواد سليم وفرج عبو والدروبي ، ولفنانين غربيين نذكر منهم بصفة خاصة « غويا » و « فان كوخ » .. والذي يبعث في النفس الامل ان تكنيكهم ، رغم بؤس الموضوع ، طيب نسبيا .

ويمكن ان نقول ، بلا تردد ، ان هناك مجموعة اخرى من الفنانين الناشئين يصح ان تضاف الى هؤلاء ، وذلك ما نعني به اعمال الفنانين عبدالله عواد في لوحته « بساتين في الكاظمية » ، وعبدالله الخطيب في لوحتيه « سوق في الحلة » (١) و (٢) ، وعبد القادر العبيدي في لوحته « غزل » ، وعذراء العزاوي في لوحتها « ورود » ، وغازي السعودي في لوحته « اهل الكهف » ، ونائرة الكتاب في لوحتها « احزان » ، ونزيهة رشيد في لوحتها « راعية » ،ووداد الاورفلي في لوحتها « قوارب » وماريا اوبان في لوحتها « صورة اعرابي » ، ووليم قلاب في لوحته « حجي عمران » ، وبابازيان في لوحتها « فتاة عربية » ، فقد كانت كل هاته اللوحات طيبة المضمون نسبيا ، الا ان ذلك قد جرى ، لسوء الحظ ، على حساب الشكل والتكنيك . ولبعض هؤلاء امكانية رائعة في التطور كما في لوحات ناثرة الكتاب وبابازيان وماريا عذراء ونزيهة رشيد ، ولكن هذه الامكانية قد تناومت تحت ركام من التخوف وابتغاء السهولة والاندفاع في التقليد للاساتذة وبالاخص الاستاذ الجادر !

اما زيد صالح ـ وهو فنان اختص ، على ما يظهر ، بالخيول ـ فقد انكفأ عن فتوحاته السابقة موضوعا ومضمونا . ومع ذلك فان خيوله في لوحاته الثلاث أتت تفوح بغنائية طيبة . وهذا الفنان عرض نفسه على انه من « جماعة الرواد » في العام الماضي ، ولا يشفع له سوى لوحته ، «بيت شعر» التي تنقله الى حيث يجب ان يسوقه منطقة الواقعي .. وقد افتقدنا هنا زملاءه قتيبة وعيسى حنا ونوري بهجت فلم نر لهم شيئا !

ولسلمان داود خمس لوحات كان الموفق فيهن موضوعا ومضمونا لوحة « مضيف الشيخ » وقد جادت هذه بمعطيات تنم عن تحسس فني شاب بالرغم من نقص الثقافة الفنية وحداثة التمرس .

اما سوزان الشيخلي وفائق حسن ويوسف عبد القادر ـ وكلهم فنانون موهوبون من « جماعة الرواد » ـ ،فقد عرضوا ، لحسن حظ المتفرج الذي انتظرهم امد طويلا ، لوحات رائعة موفقة . ف « سوق الاقمشة » و « صفارون » و « سوق الشورجه » لسوزان كانت ، جميعا ، معرضا لتكاتف الموضوع والمضمون في اطار شكل جيد مبدع . وبالرغم من ان سوزان هذه متأثرة باسماعيل الشيخلي الا ان شخصيتها الفنية قد تجلت ، مع ذلك ، في تبرعم انيق فواح بالنزعة الانسانية .والشيء نفسه يقال عن « في المطعم » ، و « المولود الجديد »، و « قهوة المحلة » لفائق حسن، فقد تفوق هذا الفنان على ذاته واتى بجديد في المضمون ، اضافة الى جودة موضوعه وانسانيته وواقعيته ، وكذلك الامر بالنسبة للوحة « بائع السمك » ليوسف عبد القادر ، والتي تعاون فيها الموضوع والمضمون في شكل لا يمكن الاستهانة به . ورغم تأثر فائق ويوسف بماتيس وبيكاسو ، الا ان عطاءهما لهذا العام كان سخيا وانسانيا ايضا .

وللفنانين عبد الامير القزاز وعالية القرغولي ومظفر ـ وهم ، جميعا ـ من « جماعة الانطباعيين » كما قدمهم دليل معرضهم في العام المنصرم ـ لوحات طيبة المضمون والتكنيك رغم ان ذلك قد تم على حساب الموضوع ومع ذلك فان لوحة عبد الامير « المقامران » ولوحة مظفر : « البستاني » ، بالاضافة الى لوحة «سوق الشيوخ» لمظفر نفسه ، هذه اللوحات الثلاث جادت بموضوع طيب ، واعطت الانطباع عن توفيق محاولاتهم هذه ، اذا قيست بمحاولاتهم في معرضهم الخاص للعام الفائت . ولكن عاليه تنحدر في اربع لوحات الى محاولات بدائية تقدم الفنائية والسربلة الشعرية ، بالرغم من ان لها رصيدا طيبا لمحاولات موفقة سابقة كما تجلى ذلك في « حلم » و « عباءات »

اما الفنانون علي الشعلان وفاضل عباس وطارق مظلوم ولورنا سليم

لوحة اخرى من الفن الفارسي استوحاها الفنان جواد سليم
في صوره الجدارية لصالة سينما الخيام .

★

ونزيهة سليم ونزار واراديش وميران السعدي ـ وهم ، جميعا ، من « جماعة بغداد للفن الحديث » ـ فلم يأتوا بجديد ، هنا ، في هذا المعرض الجماعي الموحد الذي انتظر منهم عطاء مخلصا ينسجم مع ما عرفوا به من محاولات مجيدة وممارسات دؤوبة لا تعدم التوفيق في اكثر الاحيان . ان اللوحات : « الزفة » لنزار سليم ، و « بائع » لميران السعدي الذي درسناه فيمعرضجماعته نحاتا ـ ، و « سوق الدهانة » لفاضل و و«الذهاب الى الحقل» لعلي و « امرأتان تمشطان » لطارق ، اقول ان هذه اللوحات كانت الشافع الوحيد لوجودهم في هذا المعرض . فالحق انهم قد تألقوا في معرضهم المستقل لهذا العام وللعام الماضي بفنائية وعفوية احتضنت مضامين جيدة لمواضيع متطورة ، ولكنهم ، هنا ، شأنهم شأن جواد سليم ، مثلا ، لم يقدموا لوحاتهم المميزة .. وهكذا فاننا لا نستطيع الا ان نسجل عليهم هذه السابقة !..

والامر نفسه نؤكده تجاه فناننا ذي النزعة الانسانية ـ والموفق فيما يخص الحقيقة الظاهرة ـ ، الاستاذ فرج عبو . فقد تقدم ، هنا ، بخمس لوحات كان قد رسم بعضهن في روما ، ومع ذلك فلم نستطع ان نهضم محاولاته هذه قدر توفيقنا في هضم لوحاته القمم « البناؤون » « القرية » ، « هذا الانسان » ، « حاملات الجرار » في معرض جماعته ـ « جماعة بغداد » ـ لهذا العام والعام الماضي . ان لوحاته « فتاة من روما » ، « دراسة عارية » ، « عارية » ، « الزينة » ، «فتاة هولندية» لم تكن، مع شديد الاسف ، الا محاولات بدائية لتلميذ يدرس الفن في ايطاليا وليست لوحات مميزة رائعة لفنان احتل مكانه اللائق به كما قدمته اعماله في معرض جماعته لهذه السنة مثلا . «ومع ذلك فان تكنيكه يظل يتطلب عمق الثقافة النظرية والعامة والدراسات في فلسفة الانسجام اللوني وفي علم النفس ..

اما كاظم حيدر ونوري الراوي ـ وهما فنانان اسهما في خلق الجماعة الجديدة « جماعة الفن المعاصر » ـ فقد قدما محاولات طيبة جدا ، ان درست في اطارها الموضوعي والسيكلوجي ، وان هضمت الحقيقة ان هذين الفنانين لا زالا طالبين في معهد الفنون ، وان عطاءهما هذا كان انساني النزعة واقعي المضمون رغم ان ذلك قد تحقق على حساب الشكل والعالم اللوني . فنوري الراوي ـ وهو فنان مثقف ـ له لوحتاه « دعوة الى الفرح » و « نواعير الفرات » ـ وهما لوحتان طيبتان من حيث المضمون والموضوع بالرغم من نقائصهما الفنية . كما ان حيدر ـ وهو طالب في دار المعلمين العالية ـ قدم لوحتين رائعتين هما « ضريح الامام » و « الايدي » . الحق ان محاولات حيدر والراوي جاءت ، لحسن الحظ ، موفقة في هذا المعرض وقد نمت عن جهد دؤوب وتدقيق مخلص ، وما يعوزهما شيء سوى العناية بالشكل وتتبع فعاليات المدارس الحديثة في الفن .. ومع كل هذا فان لنا كل الامل انهما سيتطوران كيفا وتكنيكا في قابل الاعوام .

ولعاصم حافظ ـ وهو فنان قديم غالى في تقدير اثمان لوحاته (فقد ثمن ثلاث لوحات له كالتالي : (٦٠ دينارا ، ٨٠ دينارا ، ١٠٠ دينارا) ـ لوحات تنضح بتكنيك فني جيد ، الا ان ذلك لا يشفع ابدا لهزال الموضوع وقحطه لديه . ولا ندري ان كان هذا الفنان يعيش بيئته وواقعه ام انه ضيف في تربتنا التي الهمت كثيرا من الفنانين مواضيع اجتماعية هادفة . وعلى اية حال فان لوحاته ـ التي ذكرنا اسعارها ـ : « نخيل في ضواحي بغداد » ، « كوب شاي وثمر » ، « بطيخ ماوكي » تشهد لنا بصدق حكمنا، هنا ، عليه.

اما غالب ناهي الخفاجي ومهدي البياتي ونجيب يونس فقد عالجوا مواضيع طيبة بمضامين لا تقل طيبة ولكن ، كما كي العادة ـ مع شديد الاسف ـ ،على حساب الشكل واللون . وهكذا فان لوحات « عمال الصاغة » و « قرية » للخفاجي ، و « بيوت العمال في ايران » للبياتي ، و « عربة وليل » و « بائعة اللبن » لنجيب ، هذه اللوحات ، جميعا وفقت موضوعا ومضمونا ولكن الألوان كانت مهملة تقريبا . ومع ذلك فان لنا الثقة ، ان تطورا تكنيكيا سيتوج اعمالهم في المستقبل .

ولقاسم ناجي ـ وهو فنان تنضح لوحاته بالفلسفة والتعقل ـ ثلاث لوحات موفقة في الموضوع والمضمون والشكل ، واعني اللوحات « ام وجنينها » و « الحياة » و « الليل والنهار » ، وقد كانت هذه اللوحات ـ في رأيي ـ مصداقا طيبا على عطاء الفنان حين يفيد من واقعه وعاقلته وثقافته . على انني مضطر ان الاحظ ان العفوية والتشويه الفني لم يعيشا نفسيهما في اللوحات هذه ، مثلما عاشت في لوحات قاسم السابقة ومنها « آدم وحواء » مثلا ..

اما الآن فاننا نأتي الى وجه مشرق لفننا العربي والعراقي واعني به الفنان الانسان محمود صبري . ان هذا الفنان الذي عرض نفسه واقعيا تعبيريا ، برهن على انه يتطور بسرعة ولاسيما في الكيفية العملاقة . كما ان الانصاف يقتضينا ان نقول انه فاح بعطاء سخي بالانسانية والغنائية ، اضافة الى وعي والتزام فني بناء . والمتتبع لاعمال هذا الفنان منذ سنة ١٩٥٠ يجده ، ابدا ، في صفوف الناس وفي طليعتها . ان هذا الفنان

يعيش وجوده ويفيد من قلقه وتصاديه مع الجمهور لا فيما يقدم من مواضيعمواضيع طيبة بل بمضامينه الممتازة التي هي ، بعد دقيق التحليل والفحص ، خطوة انشائية لبناء اتجاه عربي وعراقي في فننا الحديث . وما يعيب عليه النقاد امثال الناقد الاخ احمد مرسي الذي درسه في معرض جماعته « الرواد » للعام الفائت والناقد الفنان عطا صبري (راجع « الاداب » العدد السابع للسنة الاولى ١٩٥٣) ، هو أنه لا يعنى بالشكل عنايته بالموضوع والمضمون . ونحن هنا نود ان نؤكد هذه الملاحظة ، لكننا مضطرون ، من ناحية اخرى ، الى ان نعترف ان هذا الفنان فلتة طيبة لفننا العربي المعاصر . ولنا الان ان نقف وقفة خاصة لدى معروضاته بصفته الفنان الوحيد الذي اعتصر ثقافته ووعيه وفلسفته وتقدميته فاسقطها شعورا ولا شعورا في لوحاته ، هنا . ان لوحاته « البناؤون »(١) و (٢) و « الملايات » (١) و (٢) و «منظر ريفي» ـ وهي صورة جدارية لعمارةالسيد منير عباس ـ ، كانت قد قدمت خيرة ما يمكن ان نتوقع من مضمون حي لهذه المواضيع . وبمقارنة لوحتيه « البناؤون » باوحة الفنان فرج عبو بنفس الاسم ـ والتي عرضت في معرض « جماعة بغداد » لهذا العام ، نجد صبري يتفوق كثيرا في المضمون ، فالسمفونية الانسانية والسربلة الشعرية التي احتضنت كل اللوحة ، والتكنيك الذي لم يتخلف عن معاونة الموضوع ، كل هذا قد اكد تطورا وسبقا للفنان صبري . والحق ان الحركة لاشخاصه والديناميكية والتعبير ـ او فلنقل الحيوية الفنية ذاتها ـ ، جاءت طيبة ، ناضجة مستوعبة تجاربها لتعكس دأبا وجهدا فنيا خصبا ، شفع لاحتجاب هذا الفنان وغيابه عن معارض هذا العام.

ولي وقفة اخرى ، وقفة مدققة متفلسفة ، امام « جحيم دانتي » للفنان صبري . فقد جاءت هذه اللوحة عملاقة التعبير ، انسانية الاتجاه ، فخمة المضمون والشكل . ان الالوان التي اجاد اختيارها ، والسبك الموفق ، والتفريش والتسوية اللونية الرائعة ، مضافا الى المضمون الشعري الصوفي للوحة ذاتها ، قد برهن على فتح جديد لصبري في الاسطوريات والفنائيات . واعترف اني دققت كثيرا في هذه اللوحة فمشتها في ملحمة دانتي وطعمتها برسالة الغفران للمعري ، وخرجت من ذلك كله ان «جحيم دانتي » هذه شيء يستحق ان يحتضنه المتحف الوطني ـ الذي نعيشه خيالا ، الان ، ونأمل ان يتحقق في قابل الايام ـ . على انني اعترف ، من جهة ثانية ، ان موضوعية صبري ووعيه العلمي يجب ان يدفعاه لانتاج لوحات جديدة في مثل مضامين لوحاته القمم السالفة : « كانون » و « المسيرة الكبرى » و « الليل الطويل » و « اشخاص في الظلام » ، التي كان قد عرضها في عامي ٥٢ و ١٩٥٦ . ومع ذلك فان الشكل لديه يفتقر الى العناية التي يكرسها فناننا التعبيري الجسور ، صبري ، لموضوعه ومضمونه فحسب . واليوم الذي يتعاون لديه موضوعه ومضمونه وشكله في تأليف عضوي ووظيفي حي ، سيسجل ذلك اليوم رسوخ فناننا العربي ذي المنهج الواقعي المتطور على ارض وطننا الاصغر والاكبر . ونحن نعتقد بعد تدقيق لوحاته هذه ، ان ذلك اليوم قريب جدا .

اما المنحوتات فقد جاءت فقيرة للغاية سواء من ناحية الكمية او الكيفية. ولولا « حلم » ـ برونز ـ و « ربات الرشاقة الثلاث » ـ جبس ـ لخالد الرحال ، و « العودة من العمل » ـ نحت بارز ـ لعيدان الشيخلي ، و « معيدية » لميران السعدي ـ وهي خشب ـ و « الريف » ـ جبس ـ لجواد سليم ، لما استطعنا ان نلحظ ما يوجب دراسة منحوتاتنا في هذا المعرض . والعجيب ان الرحال وجواد سليم ـ وهما من « جماعة بغداد » قد جاءا بمنحوتات طيبة العطاء في معرضهما ـ ضمن جماعتهما ـ ولكنهما هنا ، يتخلفان ، للاسف ، الا في تقديم منحوتات « على الماشي » وكأنهما يريدان ملء الفراغ فحسب . وعلى اية حال فان قوة التعبير في «الريف» لجواد سليم متخلفة عن صوره الجدارية السالفة ـ التي احتضنتها صالة سينما الخيام ببغداد ـ، ولكنها فاحت ، كالعادة بفنائيته الحبيبة والتي تملك علينا مشاعرنا حقا . وكذلك الشيء نفسه عن « ربات الرشاقة الثلاث » للرحال فقد كانت مزهرة التشويه الفني ، رائعة الاداء . وهناك عمل نحتي رائع لعبد الحسين المحروس ـ لم يتضمنه الدليل ـ عنوانه « في انتظار الحصاد » يبشر بآمال عريضة في تطور هذا الفنان الذي لا زال يتوجب عليه ان يتأمل انجلو وجاكوميتي كثيرا .

وليس لنا ان نتكلم عن المعمار والفخار المزجج ، ما دام ذلك خارج نطاق دراستنا التي كرسناها للمرسومات والمنحوتات فقط . ومع ذلك فاننا نشد على ايدي الفنان فريدون والمهندس رفعت الجادرجي وقحطان، ونتمنى لهم أعمالا أكثر توفيقا . واود ان اؤكد هنا على اعمال فريدون التي جسمت لنا النقش الفارسي الذي هو احياء وامتداد للنقش العربي والاسلامي في القرون الوسطى . ولا ندري ، بالمناسبة ، لم اهمل فنانونا العراقيون هذا الحقل او تخلفوا فيه ..!

*

والآن ماذا يمكن ان نقول عن مجمل دراستنا هذه ـ التي اقتضتنا التأمل المدقق طيلة ايام العرض ـ ؟ وما هي نتائج فحصنا النقدي هذا ، وما تثير فينا من ملاحظات واقتراحات وتأملات ؟!

١ ـ ان هذا المعرض الجماعي الموحد والرائع يعد خطوة انشائية موفقة ولا شك في جمع جهود فنانينا وتقديم الوجه الابيض لفننا العراقي الحديث . وهذا ما نؤكد عليه بالرغم من ان بعض الفنانين الموهوبين امثال عطا صبري ومحمد غني حكمت ـ الذي يدرس خارج الوطن ـ وبهجت عبوش وخليل الوردي ومدام بوغوصيان والحاج سعاد سليم وآخرين ، لم يشتركوا في هذا المعرض . ونحن مضطرون ، هنا ، ان نسجل عليهم هذه السابقة غير المشجعة ، والتي نتمنى ، مخلصين ، ان لا يعيدوها ، حتى ولو كانت لهم اعذارهم المشروعة .

٢ ـ ان المعرض قد ابرز جماعتين فنيتين احتجبتا طيلة موسم هذا العام ـ عدا فعاليات معرض بغداد ـ ، ونعني بهما « جماعة الرواد » و « جماعة الفن المعاصر » . وتقتضينا الحقيقة التاريخية ان نسجل تقدما وسبقا ملحوظين لمحاولات هاتين الجماعتين وبالاخص الفنانين صبري والشيخلي والراوي .. كما ان المعرض اتاح « للانطباعيين » ان يقدموا أعمالهم ، بالرغم من انها لم تتطور التطور المنتظر لها ..

٣ ـ اكد المعرض على دائين فنيين ، يشكو منهما اكثر فنانينا العراقيين بل واخوتنا الفنانون العرب ايضا . والداءان هما اهمال الشكل والتأكيد على الموضوع والمضمون ـ كما رأينا لدى « جماعة الرواد » و « جماعة الفن المعاصر » ، واهمال الموضوع والتأكيد على الشكل ـ كما رأينا لدى « جماعة بغداد » مثلا .

٤ ـ سجل المعرض تخلف النحت بشكل محسوس جدا ، فمن بين ٢٠٩ اعمال فنية ـ سجلها دليل المعرض ـ كانت ١٩٠ منها للمرسومات والباقي وهو ١٩ عملا فقط للمنحوتات . هذا من ناحية الكم ، اما من ناحية الكيف فقد جاءت النتيجة اسوأ لولا بعض اعمال جواد والرحال والسعدي .. وكل ما نتمنى هو تكريس اهتمام اكبر للنحت ، خصوصا وان الاستاذين الفنانين الرحال وسليم يملكان ، مع الوردي ، قابلية فنية ممتازة في هذا الحقل . والمطلوب من المسؤولين ان يشجعوا ، بكل الوسائل ، نحاتينا المتمرسين والناشئين .

٥ ـ سجل المعرض ، ايضا ، سلبية موقف « جماعة بغداد » ، فهم لم يشاركوا بخير ما لديهم ، كما ان معروضاتهم كانت فى جملتها ، اجترارا وتكرارا . ومع ان تشجيع مثل هذا المعرض الجماعي الذي يقام لاول مرة فى تاريخ فننا العراقي والعربي بشكل منظم وباسم جمعية الفنانين ، كان يوجب على « جماعة بغداد » مشاركة اكثر فاعلية ، الا ان الذي لحظناه ، بألم كبير ، انهم ، مع بعض الفنانين الآخرين ، لم يتعاونوا حقا.

٦ ـ أثبت المعرض هروب بعض الفنانين من الواقع العراقي والعربي تحت ستار المناظر الطبيعية والاشجار والاحجار .. ولا حاجة ان نقول ان هذا خيانة لرسالة الفن الانسانية قدر ما هو تجاهل لانساننا المجاهد .

٧ ـ ولقد اكد المعرض على صحة تنبؤاتنا ان بذرة فننا العربي الانساني قد وجدت تربتها السمحة ، وان الواقع الحي يمكنه ان يلهمنا الكثير من الروائع الاصيلة ، وقد برهن الفنان صبري ، على سبيل المثال ، ان انساننا الفنان يستطيع ، بثقافة علمية موضوعية ، وخبرة فنية متطورة ، ان يخلد انساننا العربي ويدفعه قدما نحو الافضل والاحسن .

٨ ـ كما وقد افتقد المعرض عنصر التعقل والفلسفة الا فى اعمال صبري « جحيم دانتي » وفى اعمال قاسم ناجي ، اجمالا . وقد كان الفنان شاكر حسن سعيد ـ الذي يدرس الآن فى باريس ـ مثال الفنان المتعقل الذي يخدم الفكر الانسان بواسطة رموزه وتهاويله بالرغم من سلبية بعضها وثانوية مواضيعها .. وهذا يعني ، بالمناسبة ، ان الثقافة العامة المتطورة لفنانينا ، عدا عن الثقافة الفنية اللازمة ، لم تتوزع بعدالة بين مجموع ما رأينا من فنانين فى هذا المعرض . والحق ان هذا يرجع لسطحية وتكاسل بعض متمرسينا وناشئينا من الفنانين عن تتبع الثقافة العلمية وانجازات الفكر البشري الحديث .

٩ ـ ولقد أثر العامل الاقتصادي أثره فى المعرض ـ وفى كل معرض ، فى الحقيقة ـ . فأكثر الفنانين مضطرون لان يعيشوا ، وهكذا فقد قدموا لوحات لا تنم عن دراساتهم وافكارهم وشخصياتهم الفنية والثقافية .

١٠ ـ وبالمثل ، فقد اسهمت الظلاميات والسدود فى عدم فسح المجال كل المجال ، للانطلاقة الفنية التي نريد وخاصة فى الموضوع والمضمون . وهكذا فقد خلق هذا العامل ، مع ما سبقه من العوامل ، تفاهة فنية مؤلمة لدى عدد كبير ..

١١ ـ لم يفد معظم فنانينا من علم النفس والاقتصاد والتاريخ . وقد اضطرت شعبية الموضوع بضهم ان يقدموا اعمالا ضحلة فى المضمون ، بغية النجاح الفني . ونصيحتنا هنا ان يتوسع فنانونا فى ثقافتهم العامة ولا سيما فيما يخص علم النفس الفردي والاجتماعي وان يفيدوا من الثقافة العلمية باسقاط ذلك فى لوحاتهم دون تكلف ..

١٢ ـ كان للتقليد صولة كبيرة فى اجواء معرضنا هذا . ولقد قلد البعض اساتذتهم هنا ، كما قلد كثير من الاساتذة والناشئين اساطين الفن الغربي الكلاسيكي والحديث ، ونذكر هنا على سبيل المثال بعض من قلدوهم : وهم غويا وفان كوخ ورامبرانت وسيزان وماتيس وبيكاسو وبوتشيلي وردان وانجلو ودافنشي وبراك .. ونقول ، هنا ، انه لا بأس بالتقليد للناشئين ، على ان يتخلصوا تدريجيا ، من ذلك وان يخلقوا اتجاههم الخاص .

١٣ ـ لم نجد الشخصية الشرقية المتميزة فى فننا العراقي الحديث الا فى بعض اعمال صبري وفرج وجواد وفائق . وهذا يعني ان اعضاء الجماعات لم يتقيدوا بمذهب معين ، بل ان فنانين مختلفي الثقافات والالتزامات والمعايير، استطاعوا ان يقدموا بذرة هذه الشخصية التي نريد بعد كثير من العناء والعذاب ..

١٤ ـ لم تلهم الوثبة العربية الحديثة ـ فى السنتين الاخيرتين ـ فنانينا لوحات متميزة تسجل ذلك . وهذا لا يعني ضعف الشعور بالقومية او انفصال فنانينا ، جميعا ، عن الواقع العربي . ولكنه يعني ، ان حواجز ذهنية قد خلقت وعاشت نفسها فى شعور ولاشعور البعض . ومستقبل الايام سيعطي ولا شك مصداق تحسس البعض .

١٥ ـ واخيرا ، فالمطلوب من فنانينا ان يهتموا اكثر فأكثر بالشكل والتكنيك وان يمارسوا التشويه الفني الواعي ـ مستفيدين من بوتشيلي كما فعل صبري مثلا ـ ، وان يتخلصوا من التقليد والضبابية والغيبية والصوفية والرمزية المستغلقة ، ان يؤمنوا ان الفن فعالية متحيزة في خدمة الانسان العربي والعالمي ، وانهم مضطرون ان يقدموا بلوحاتهم ، التي هي سهمهم فى الجهاد وحصتهم فى التطوير نحو الغد الافضل للمجموع ، مصداق انسانيتهم العربية . كما وان المطلوب من « جمعية الفنانين العراقيين » ان توقظ الجمهور فنيا وان تهذب ذوقه بالمحاضرات المستمرة المشفوعة بفوتوغرافات لاعمال الفنانين الكبار ، قدماء ومحدثين ، وان تفسح المجال اكثر للناشئين ـ ولكن فى معارض خاصة بهم ـ وكذلك فان عليها ان تخرج من قمقمها بالسياحة عبر وطننا العربي واقامة معارض لفنانين اخوة عرب فى بغداد (سمعنا ان معرضا عراقيا سيقام فى بيروت) ، واكثر من ذلك عليها ان تفسح المجال لفنانين اجانب ايضا . وبالمثل ، عليها ان تسعى ، بكل الوسائل ، لاقامة دار عرض مستقلة وكبيرة ولائقة بجهود فنانينا ، باعتبار ان المعروضات ، هنا ، تقدم خلاصة فن العراق وفكره ـ وهذا ما علمنا انه سيتم قريبا ـ . ولا حاجة ان نقول انه ما لم يتم كل ذلك ، وما لم يتجاوب فننا مع واقعنا وانساننا الطامح المجاهد فى وطننا الاصغر والاكبر ، وما لم يعط المجال ، كل المجال نحو انطلاق فني ارحب ، موضوعا ومضمونا ورسالة انسانية ـ وليس نزعة انسانية فحسب ـ ، ما لم يحصل كل ذلك فان ارتباكا وضعفا وتهافتا وضياعا لفننا المعاصر لا بد ان يحدث رغم طيبة القلوب واخلاص الجهود وتعاون الضمائر النظيفة . وليكن شعارنا ـ فن عراقي عربي حديث فى خدمة الانسان العربي بايحاء من الواقع الحي المتجدد ، وبرسالة انسانية بناءة ، وبابداع تكنيكي متطور ابدا . وهكذا نستطيع ان نوفي التزاماتنا المجتمعية ونسهم فى اداء الواجب المقدس ، ونخلد انساننا العربي المؤمن بغده الافضل .

هذا واننا لمؤمنون ان مثل هذا اليوم آت حتما ـ ومن سار على الدرب وصل .

بغداد

جليل كمال الدين